بسم الله الرحمن الرحيم

الدرس: 9 الأستاذ: سماحة العلامة الشيخ معين دقيق

الدرس: تفسير القرآن الكريم المبحث: سورة الإنسان

التاريخ:16\11\2022 م كتبه: عبدالله ضيف الستري

ما زال الكلام في الآية الثانية، ووصلنا إلى الوقفة الثالثة في قوله: ﴿نُطْفَةٍ أَمْشَاجٍ﴾، واتضح المراد من النطفة لغة وعرفاً، وهو أمر واضح.

الكلمة الثانية: الأمشاج، وهي كلمة تدل على الاختلاط.

قد يتوهم أنها جمع، ولكنها في الواقع مفرد؛ وذلك لأنه قد وصف بها المفرد، والمفرد لا يوصف بالجمع، لا بجمع تكسير ولا بغيره. وعندنا في اللغة العربية كلمات صيغتها صيغة جمع تكسير لكنها تكون مفردة، على خلاف القاعدة. من جملة هذه الكلمات كلمة أمشاج، فهي كلمة مفردة.

وهي في العربية كمفهوم لغوي لا شك أنها تدل على مزيج واختلاط، إنما الخلاف بين المفسرين وقع في بيان مصداق هذا الخليط، فذهب إلى كلٍ فريق، هل هذه النطفة المختلطة عبارة عن ماء الرجل وماء المرأة أو هي عبارة عن التراب والماء والطين وما شابه ذلك أو عبارة عن النطفة ودم الحيض أو أنها -كما ذهب إليه في هذا الزمن- عبارة عن الجينات التي تؤخذ من الأب والأم؟

هذه الآية واضح لم تبين أي شيء من هذا القبيل، ولا يوجد عندنا رواية في المقام يمكن أن نعتمد عليها لنعرف هذا المزيج. لكن يمكن أن نستأنس بآيات أخرى في القرآن الكريم، كقوله في سورة الطارق: ﴿يَخْرُجُ مِنْ بَيْنِ الصُّلْبِ وَالتَّرَائِبِ﴾ صلب الرجل وترائب المرأة -الأضلع التي تحت صدرها- ، فربما يستأنس بذلك للقول -وهذا هو الشيء الذي يبدو في الذهن ابتداء- أن هذا الإنسان اللهُ سبحانه وتعالى خلقه من مزيج مختلط بين نطفة الرجل ونطفة المرأة، وهذا حتماً يتضمن الاختلافات بين النطفتين، لكن ليست هي مصب الكلام ابتداء، إذ أن الخال أحد الضجيعين، وهذا الذي يشير إلى

التأثير الجيني. لكن بدواً وما يفهمه العرب والعرف في ذلك الزمان أن الباري تبارك وتعالى خلق هذا الإنسان من نطفة مختلطة من الرجل والمرأة.

الوقفة الرابعة: قوله تعالى: ﴿نَبْتَلِيهِ﴾ وقع فيها الخلاف.

اختار العلامة الطباطبائي رَحِمَهُ اللَّهُ أن المقصود من الابتلاء هو انتقال الشيء من حال إلى حال، أي هذه النطفة المختلطة نطورها، هي الآن نطفة فتصبح مضغة، فتصبح علقة، فتصبح عظام، فتصبح مكسوة باللحم إلى أن تبارك الله أحسن الخالقين. فالابتلاء هنا بمعنى التطوير.

وللوهلة الأولى هذا خلاف الظاهر وخلاف المتعارف، أن الابتلاء ظاهر في معنى الامتحان والاختبار، خلقناه من كذا وكذا لأجل أن نبتليه ونختبره. فما هو السبب الذي دعا مثل العلامة الطباطبائي رَحِمَهُ اللَّهُ كي يختار هذا القول؟

السبب في ذلك: هو ما يأتي بعد هذه الكلمة ﴿فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعاً بَصِيراً﴾، لو المراد من الابتلاء المعنى العرفي الظاهر فيكون الابتلاء متأخراً عن كونه سميعاً بصيراً، نخلقه من نطفة ونجعله سميعاً بصيراً ثم بعد ذلك نبتليه. فلما قدم الابتلاء على جعله سميعاً بصيراً نعرف أن هذا الابتلاء المتأخر عن جعل السمع والبصر هو تطور هذه النطفة إلى أن تصبح إنساناً كاملاً يكون سميعاً بصيراً.

وهذا القول ذكره جمع ممن تقدم على العلامة رَحِمَهُ اللَّهُ، ولكن كاحتمال، فالمعروف بين علماء التفسير هو المحافظة على المعنى العرفي لكلمة نبتليه.

لكن مسل البيضاوي في تفسيره ذكر هذا التحول والتطور على سبيل الاحتمال، والقدماء من علماء التفسير كانوا ملتفتين إلى هذه الإشكالية، أن ﴿فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعاً بَصِيراً﴾ قد تأخرت عن الابتلاء، ولأجل ذلك من علماء التفسير، ومن أوائل علماء التفسير كمقاتل، ومن أئمة النحو كالفراء، هؤلاء اختاروا أن في الآية تقديماً وتأخيراً (أنا خلقنا الإنسان من نطفة أمشاج فجعلناه سميعاً بصيراً لنبتليه) وقرينة هذا التقديم والتأخير هو الوضوح؛ لأن الابتلاء بالتكليف يكون بعد جعل الإدراك لا قبل جعل إدراك، فالذي هون أمر هذا التقديم والتأخير وضوح ذلك.

واختار الزمخشري القول المعروف، والذي يأتي إلى الذهن ابتداء، نختبره ونمتحنه. وأشار إلى ما ارتكبه الفراء ووصفه بالتعسف، ولم يبين ما هو وجه التعسف.

باعتقادي أن الصحيح هو القول المعروف خلافاً للعلامة الطباطبائي رحمه الله، وأن قوله: ﴿فَجَعَلْناهُ سَميعاً بَصيراً﴾ المتأخر لا يقتضي أن نرفع اليد عن ظاهر الكلمة. مع الالتفات إلى أن العلامة الطباطبائي رحمه الله اختار رأياً ذكر قبله كاحتمال، لكن مع وجود خلاف، فالذين جعلوا ﴿نَبْتَليه﴾ بمعنى التطوير والتحويل جعلوه استعارة، أما العلامة الطباطبائي رحمه الله جعله على نحو الحقيقة، أن الابتلاء هو التغيير من حال إلى حال.

الوجه فيما نقوله: أن هذه الآية المباركة مفادها العرفي الظاهر أن الله سبحانه وتعالى أكد على حقيقة ثابتة، وهي أن ذلك الإنسان الذي لم يكن شيئاً مذكوراً، كان طيناً وتراباً لا يذكر، ابتدعه وأنشأه من نطفة مختلطة، هذا فعل الله، فعله تبارك وتعالى يحتاج إلى غاية، فغايته هو الاختبار والامتحان.

فخلقنا للإنسان ليس فلتة، وإنما هو لهدف، لكن لكي نحقق هذا الهدف نحن بحاجة إلى أن لا نكتفي بصورته ومادته، بل لا بد من بث الوعي فيه ﴿فَجَعَلْناهُ سَميعاً بَصيراً﴾.

فما ذكره الفراء من أن الابتلاء بالتكليف لا يكون إلا بعد جعل السمع والبصر لأجل ذلك التزم بالتقديم غير صحيح، صدر الآية بين علة الخلق، كما لو جئت إلى هذه البلد لأطلب العلم -فلأطلب العلم علة المجيء- فحضرت عند أفضل الأساتذة. فحضرت عند أفضل الأساتذة، فإن طلب العلم لا يكون إلا بالحضور أفضل الأساتذة، لكن لست في مقام ترتيب هذه الأمور، بل في مقام بيان أن مجيئي لهذه البلد هذه غايته، لأجل أن أحقق هذه الغاية أن أحضر عند أفضل في الأساتذة.

الباري تبارك وتعالى -أن صح التعبير في حقه تبارك وتعالى- العلة الغائية لخلق الإنسان هو الاختبار والامتحان. لكن هذا الاختبار بحاجة إلى أدوات ﴿فَجَعَلْناهُ سَميعاً بَصيراً﴾ ومن المعلوم أن العلل الغائية -كما ذكرنا في الأصول مراراً- متقدمة تصوراً ومتأخرة تحققاً، كالنجار الذي يصنع السرير، فعلته الغائية الاستلقاء والنوم، ويحصل النوم بعد صناعة السرير، المفروض العلة تتقدم على المعلول،

وهنا المعلول تقدم على العلة. فحل الإشكالية بطريقة أن العلل الغائية متقدمة تصوراً لكي تحرك النجار أو غيره، ومتأخر تحققاً.

وهذا من باب تقريب الفكرة وإلا في حق الباري هذه الأمور لا تصح، فالله سبحانه وتعالى لم يخلق الإنسان عبثاً، بل خلقه لغاية، وهذه الغاية اختبار هذا الإنسان وامتحانه لكي يتكامل، فلما كانت هذه الغاية فلم يتركه مجرد صورة إنسان من طين وتراب وما شابه ذلك، بل نفخ فيه الروح وبث فيه أدوات الإدراك ﴿فَجَعَلْناهُ سَميعاً بَصيراً﴾. فلسنا بحاجة إلى الالتزام بالتقديم والتأخير حتى نصحح الكلام.

الظاهر أن الزمخشري هذا هو مقصوده من التعسف.

فالصحيح ما اختاره المشهور، لكن من دون الالتزام بتقديم وتأخير.